على هامش خطاب الرئيس القوتلي

البيان في خدمة السياسة واللغة في خدمة الفكرة

أحدث خطاب الرئيس شكري القوتلي رئيس جمهورية سورية الشقيقة ، الذي القاه في السادس من هذا الشهر على مدرج علمي كبير هو مدرج الجامعة السورية ، ضجة كبيرة لا في العالم العربي فحسب ، بل في العالم كله ، لما تضمنه من ايضاحات سياسية قومية ودولية ، صريحة وجريئة ، ولبقة مهذبة في الوقت نفسه ، وظلت اسلاك البرق في العالم تتناقله طوال اسبوع كامل بعد القائه ، وانصبت عليه الدراسات لتعيين اتجاه العرب الحديث ، ووصفه بعض سياسيي العرب وكتابه السياسيين في مصر وسواها ، بأنه دستور العرب القومي لسنين قادمة .

ويهم مجلة « الآداب » هذا الشهر أن تقتصر في كلمتها وعرضها لخطاب الرئيس القوتلي ، على ماهية هامة فيه ، لفتت نظر المثقفين العرب ، كما لفتت نظر السياسيين ناحيته السياسية . وهي ناحية الاشراق الأدبي في ديباجة هذا الخطاب القومي ، واتكاء الخطاب في تسويد المعنى على تجويد اللفظ ، ودقة الأداء ، وطرافة التشبيه والاستعارة ، مما تجردت عنه الخطب والبيانات السياسية المألوفة في العالم العربي . وقد جاء خطاب الرئيس القوتلي دليلا ناصعاً على أن الإشراق الأدبي في البيان السياسي ، قوة له ، وروح لسطوره وكلماته ، وأن البيان لايتنافى مع الدقة . وأن حسن الأداء ، لايتنافى مع حسن المعنى . فالخطاب على هذا ، سبق جديد في تاريخ الخطب السياسية العربية ، يجب تسجيله ، ليعتبر به رجال السياسة .

• ان الخطاب بمجموعه ، جزء كامل متصل الحلقات مبنى ومعنى . ولقد كنا نود ايراده كاملا ، لولا انه اصبح ملك الصحافة اليومية السياسية ، فلن نغير عليه ثانية . على اننا في سبيل الاستدلال والاستشهاد نحب ان نورد لقرائنا مقاطع من هذا الخطاب القومي ، ليروا معنا الى نماذج من الاشراق الأدبي في الخطاب السياسي ، ونرجو ان يتاح لقرائنا مطالعته كاملا .

وفيما يلي بعض هذه النماذج :

تعريف الرئاسات والرؤساء

ولكم خاطبتكم في البأساء والنعماء ، ولقيتكم في ايامكم قبل ان تبلغوها ، وبعد أن بلغتموها ، وكم عودت نفسي ان اتصفح وجوهكم ، واواجه قلوبكم ، واستوحي عزائمكم كلما الم بنا خطب ، وادلهم في حالكات الليالي أمر ، فما اخطأ حدسي عندما عقدت عليكم الرجاء ، وما تحول ايماني ، عندما وضعته عند الله والحق . ولقد وضعت حياتي في طريق النضال ، وما وليت عليكم لانحجب عنكم واضل عن طريقكم ، وما عرفت الرئاسات والقيادات في عهود الجهاد ، وليس لها عندي اي تعريف سوى انها عهود على اصحابها ، ديون في ذمتهم ، وحقوق على رقابهم ، ومضاء مستقيم الى منياتهم ، فان كتبت لهم الحياة ، اكرم الله حياتهم بجهادهم ، وان كتبت لهم الشهادة اكرم الله ثراهم ، واجزل عطاءهم ، وبارك الأرض بدمائهم .

سلام العبيد

وعندما يصفو لاسياد الامبراطوريات جو الطمأنينة والسلام الذي ينشدون ويستمرون في غرف ثروات الامة العربية وارزاقها تغص بها حلوقهم ، وتمتلىء بطونهم لنعيش نحن ... اصحاب الارض والضرع والزرع ، على الطوى والظمأ والحرمان . وقد يأتينا فقهاؤهم وباحثوهم ، ورسلهم ، يدرسون ويبحثون ، ويمدون لنا يد الصداقات والكرامات اذ يصنفوننا في جدول الشعوب المتخلفة .. ويضعون شروطهم لمساعدتنا ، اقلها شروط على حساب سيادتنا وحريتنا . ولم يسأل احدهم ضميره لماذا تخلفنا عن الركب العالمي ..!؟ لماذا يريدوننا ان نعيش على ضنك وضنى وحرمان ، لنزق ثرواتنا وارزاقنا الى مخازنهم ومستودعاتهم يغدقونها على انفسهم بل يغدقونها جهاراً نهاراً ونحن سكوت على الأذى والضيم ... فلا عاش السكوت على الضيم .. ولا عاش الركوع على الخنوع ، ولا عاش احتمال الأذى ورؤية جانيه ، ولا عاش الاستقرار هينة في مخلب الاستعمار .. ولا عاش السلام على الارض محمولا على مناكب العبيد مضرجاً بدم الابرياء . ولا نامت أعين الجبناء .

تاريخ ٣٨ عاماً ببعض سطور

الخص لكم بكلمات ايها الأخوان والأبناء خبيثة الحملة الموجهة ضدنا ، لا لأعقب لكم بالتفاصيل على موقفنا الحازم الحاسم من مصر ابان العدوان ، فقد عرفتم ذلك من حكومتكم في مناسبات عدة ، وتعرفون ذلك من مشاعركم وضمائركم ، بل لأوكد لكم اننا ونحن على علم اليقين بما يكمن وراء حملة العدوان المثلث على مصر ، انما كنا هدفاً من اهداف هذه الحملة وأن الوجود العربي بالذات وبالكل هو هدفها الاخير . وكنا على علم اليقين ان معاهدة سايكس – بيكو السرية بين فرنسا وبريطانيا خلال أعوام الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ – ١٩١٨ ، قد بعثت مرة ثانية وراء اسمي ايدن – موليه عام ١٩٥٦ وبعثت معها وعد بلفور – ونزوات الصهيونية العالمية التي تحركت مع ريح ذاك الوعد المشؤوم ، وان حملة العدوان الفرنسية البريطانية الاسرائيلية كانت تضع لها هدفاً قريباً في قناة السويس واهدافاً تليه على

الضفة الاردنية ، وعلى الشاطئ السوري وبذلك يعود هؤلاء الحلفاء الى توزيع مناطق النفوذ بينهم مرة ثانية وملئة عام قادمة ، وقد استطاع الفريقان التقليديان في شركة المغامرة أن يتفقا على أمر اساسي بينهما وهو أن استقلال سورية عام ١٩٤٦ كان مبعث الحركات الاستقلالية التحررية في ديار العروبة، وان الشعب السوري فوهة بركان تكاد تأكل جبل الاستعمار ، فلا بد اذن من كبت النار قبل ان تندلع لهيباً وحمماً ولابد اذن من ضرب ثورة مصر واستقلال سورية ... وخنق النجم العربي في مشرقه الجديد . وكانت الافعى الصهيونية ، تفتح شدقها لابتلاع اشلاء الغنيمة ، وهي تجر جوعها وفجورها وراء اعقاب المغامرين .

مكسر الرمح

التحية اكرم التحية الى الشعب المرابط في بورسعيد منازله قلاعه وحصونه ، يحارب العدو في السماء تمطر ناراً ، وفي الارض تتفجر خراباً ، يحارب في الشوارع والازقة ، وفوق التراب وتحت الانقاض ، فما فل السيف بيده الا وقد فل على رؤوس الغاصبين ، وما انكسر الرمح في قبضته الا وكان نصله قد استوى غميقاً في احشاء التنين . تحية أكرم تحية الى ارواح الشهداء الذين سطروا بدمائهم في تاريخ العرب الحديث وقائع ايام خالدة من ايام العرب .

المصعرون !

وعندما انطلق جندي سوري من نصارى اللاذقية الذين كانت تبني فرنسة على ولائهم المزعوم لها اوهاماً خرقاء ، ليضرب بصدره المملوءة بحب وطنه وعروبته ، صدر البارجة الفرنسية في مياه بور سعيد كان الالوف من اخوانه مسلمين ومسيحيين ، يتمنون لو اتاح لهم شرف الموت فداء ، على مركب الاستعمار يتحطم شظايا ومزقا ، ويهوى الى اسفل السافلين ، حيث مصير ومصير الآثمين المعتدين . فليتطلع الاستعمار المنكود ، عبر الشاطئ من موا في قبرص وفلسطين المحتلة ، ليشاهد الملازم الشهيد جول جمال ، خالداً بشهاده فوق الصخور ، وقد صعر للاستعمار والقوة والمكيدة ، وحوله الالوف من اخوانه المصعرين ، يقولون لطلائع الغزو : لن تمروا ! يقولون للاستعمار ان الدين اسلاماً او مسيحية ، لن يكون للمغرين منافذ وملاجيء ، ولن يكون بأي حال سبيلا الغزوات الاستعمارية .

تحية الى الفتيان المدربين على حمل السلاح

لقد شاهدت اليوم صفوفكم أيها الفتيان ، ورأيت فجر العروبة المتألق يطل مع مواكبكم فحييتم الي بشبابكم اجمل معاني الحياة ، الحياة الحرة العزيزة التي يطمح الانسان الى اينع ثمارها فيعطي لها روحه عطاء سمحا كريماً . وسواء لديه اعاش بها أم قضى في سبيلها .

انني اهنئكم واغبطكم يا ابنائي — واشكركم على ما حبوتموني اياه من نعمة الطمأنينة وبرد الثقة ، وأنا الذي اتطلع كل صباح الى منابت الاجيال الجديدة ، ومغارس الرياحين الغضة، تتدرع بالعزم والايمان ، وتتحصن بالزرد والحديد ، وتنمو في مواقع الشدة واليأس ، وتنهض الى استلام شعلة الرسالة المقدسة ، يدا عن يد ، وروحاً عن روح الى ابد الابدين .

تذهب الريح وتبقى الشجرة

واننا لأمة تنمو مع الزمن السريع عدة وعدداً ، وقوة وبأساً ، واملا وطموحاً ، وهمة ووعياً واقداماً ، ولا ذنب لهذه الأمة اصبحت الشبح الذي يرعب الاستعمار ويقض مضاجع المستعمرين ، ويثير عواصف الاحداث انها امة تنشد الحق والحرية والسلام الانساني العادل ، ولكن حذار ... فاننا قوة هذه المثل العليا ، غدونا اعداء البغي ، والباطل والحرب والاستعمار . والريح الهوجاء لن تترك الشجرة الصامدة العاتية ، قبل ان تعصف بموسم من مواسم ثمارها . ولكن الريح تذهب وتبقى الأرض وتبقى الشجرة .

الشعب هو الجبهة

ان ايام الشدة التي مرت بكم وظروف الطوارئ التي تخضعون لضروراتها قد اتاحت لكم مجالات التجربة الواسعة التي وضعتكم وجهاً لوجه مع اشباح الخطر الداهم . وان يكن سلوككم مثالياً في الفترات العصيبة ، فلا بأس ان تتلقنوا في ساحات التجربة العنيفة دروسا كثيرة ، نريدها ان تكون دروساً مستمرة في شؤون الدفاع المدني ، من اسعاف ، وتمريض ، ورعاية وتعاون ، وفي انجاز عمليات التدريب للرجال والنساء على السواء ، وللفتيان والفتيات بصفة خاصة ، ليعلم الطامعون قبل ان يجربوا فينا اسلحتهم القديمة والحديثة آن في سوريا وفي هذا الوطن العربي الف الف مدينة بور سعيد ، وان الشعب هو القنبلة الذرية ، وهو القنبلة الهيدروجينية ، هو الذرة وتفجيرها ، وهو الطاقة وتعميرها ، هو النار والنور ، والجبهة الاولى والجبهة الاخيرة .

تحية الختام

هاأنا الآن امامكم على منبر من منابر الحديث وساكون امامكم يوم تريدون وحيث تريدون على اي منبر من منابر الجهاد . ولقد قلت لكم واكرر ايضاً انني لم أول عليكم لانحجب عنكم ، ولن تخرج الرئاسات عن طريق النضال ، لأنني وضعت حياتي على تلك الطريق ، فلم ادخر ذات يوم شبابي ليوم لا ينفع فيه شباب ، ولن ادخر بقية العمر ليوم انا واياه على حساب .